

سَيِّدُ دَرَوَيْشٍ

والموسيقى العربية الحديثة

ادوارد لويس

« أنا لا أقل عن فيردي . أنا فيردي مصر » .

بمثل هذه العبارة اجاب سيد درويش بعض الاصدقاء الذين لفتوا نظره في احدى الأمسيات الى الشبه الغريب بين شكل جمجمته وجمجمة صاحب « عايده » . لقد كان غيوراً على فنه لدرجة انه ارتقى في احد الايام خشبة احد الملاهي لتوجيه لكمة الى مفرج تجراً على تحوير بعض ألحانه . وكان واثقاً بنفسه لدرجة انه طلب مبلغ ألف جنيه على تلحين اوربيت اضطر معه على ما يظهر الى السفر لأوربا لوضعه في الجو المناسب . انه ، بكلمة ، ظاهرة طبيعية بين عدة ظواهر نموذجية في شرق متوتر منكش على نفسه يحتوي على خليط عجيب من البشر ؛ ومع ذلك فان الموسيقار سيد درويش هو مجهول من قبل الاوربي الذي يعتقد بأنه يعرف جيداً فترة ما بين الحربين في مصر . غير ان بلاده قد كرمته في جميع المناسبات ، وهي لا تزال تكرم ذكراه .

توفي الموسيقار سيد درويش في الاسكندرية سنة ١٩٢٣ ، في اثناء استعداده للاحتفال بعودة الزعيم المحب سعد زغلول المظفرة . والواقع ان سيد درويش الغريب والمتطرف كالعصر الذي عاش فيه والشعب الذي انبثق عنه ، لم يتلق العلوم الموسيقية على احد ، واضطر حتى أواخر ايامه للالتجاء الى احد اصدقائه لكتابة الحانه .

ان الشيخ سيد درويش بنبوغه وثقته بنفسه يعتبر مرحلة في هذا الانقلاب الهائل الشاق الذي يتمثل في النهضة العلمية للشعب المصري . فقد نفخ في موسيقى بلاده روحاً جديدة كل الجودة ، واستطاع ان يرتفع بها الى مستوى يتمكن معه المرء من ان يعبر عن عواطفه ونزعاته بواسطتها .

في سنة ١٨٩٢ كان عهد ولاية اللورد كرومر ما يزال قائماً . ومع ذلك فان مصطفى كامل في الثامنة عشرة من عمره (وهو نضج مفرط في التبكير) كان يتأمن حزباً سياسياً ويقوم بجولات في فرنسا يحاضر في اثنائها للمطالبة بحقوق بلاده .

وكما فعل المطربشون ، رفع اصحاب العمة رؤوسهم . وتابع الشيخ محمد عبده بجرأة نادرة عمله الاصلاحى فى جامعة الازهر قلب العالم الاسلامى المتجمد . غير انه لم يحن الوقت بالنسبة الى الطبقات الدنيا من الشعب لكي تتحسس بتأثير الموجات المتعاطفة من الافكار التقدمية التى تتضمنها خطب رؤساء الاحزاب . ولكن بامكاننا الافتراض بان وجود فرق اجنبية بصورة مستمرة على الاراضى المصرية لا يدعه عديم الاكتراث تماماً ، وخاصة فى الاسكندرية فى حى كوم الدكة حيث تقوم قلعة «الطبيعة» التى حولها الانكليز الى ثكنة تشرف على البلد كله .

فى هذا الوسط يرى سيد درويش النور ، وبعد بضع سنوات من ذلك يرسله ابره وهو نجار الى مدرسة فى الحى تعلم القرآن . ثم ما يلبث ان ينقله الى رأس التين حيث يبقى حتى دخوله المعهد الدينى . وفى هذا الفرع الاسكندري من الازهر ، تظهر مواهبه الموسيقية ويصبح مدة من الزمن مؤذناً لمسجد الشورى . وفى اثناء ذلك كان سيد درويش ، وقد اصبح فى الرابعة عشرة من عمره ، يحد لذة فى جو الاجتماعات الشعبية التى تعقد فى الحى - حيث كان يلقي بعض القصائد ويرتل سوراً من القرآن الكريم لقاء بعض دربهات تعطى له اجراً على تسليمة المدعويين .

ولكن ذلك لم يكن ليروق والدته الحاجة ملوك الرهية ، ولا المعهد الذى ينتمى اليه والذي ما لبث ان طرده بحجة عدم مثابرة على العمل . ولم يكتف سيد درويش بهذا القدر من تعقيد حياته ، بل زاد الطين بلة بأن تزوج ووضع نفسه فى السادسة عشرة من عمره تحت عبء اعالمة امه واخواته وامراته التى ما لبثت ان حملت منه . والاكثر من ذلك ان ابي عمل لم يرق سيد درويش الذى اختار حياة الفنان .

ولكن حالة الفنان الذى كان يسهم بطريقة فاضحة فى الانحلال الخلقي ، لم تكن لتثير الحسد فى ذلك العصر . وكان على المرء ان يحس تحت الرتابة السطحية ، قوة هذا الفن حيث لا قيمة للكلمة الا يجرسها الموحى ، وان يفهم السحر المثير لهذا اللحن المشدد عمداً بالطبول والصنوج ، والصناعة الملوثة فى انغام حادة تنبه فى ارتجالات موحية ، ولطيف إحياءات الآلاتية الذين يعملون الجسد فى حالة انبساط شيطانية بتكراراتهم المعيبة . ويجب على المرء ان يطلع على الحبايا العميقة لهذا الفن الذى يسحر وينشي ويخدر بما لا يقل عن الكحول او الحشيش ، لكي يفهم انفعالات الفنى سيد درويش الذى اخذ يتردد الى

حانات البلد الوضيعة بلباس رجال الدين وبصحبة موسيقيين اصبح المخدر لديهم وسيلة لاستدرار وحيهم .

ولما ينس سيد درويش بعد ان عجز عن اعالة افراد عائلته بالخمس القروش التي كانت يحصل عليها ، بالرغم من الجهود التي كان يبذلها طوال السهرة ، عول اخيراً على البحث عن عمل خارج الحقل الفني ، وما لبث ان وجد عملاً في احدى ورشات البناء . فعمل مورقاً واخذ يغني على الصقالات ليسلي نفسه ، واذا بوكيل الورشة يلاحظ زيادة في انتاج العمال الذين كانوا يزدادون نشاطاً لدى سماع ألحانه الموقعة ، وانتهى الامر بهذا الوكيل ان أعفاه من الاعمال اليدوية على شرط ان يداوم على الغناء .

وكان بإزاء الورشة مقهى ، ويحدث ان يجلس يوماً على سطحه اخوان من عائلة عطالله ، فيسمعان الغناء ويعجبان به ويطلبان رؤية صاحبه . كان احدهما ممثلاً والآخر مدير مسرح ، وكانا يعدان سفرة الى بلاد الشام والى بيروت خاصة . هل كان الشاب مستعداً للحاق بهما ؟ لقد كلف بالغناء بين الفصول لتسلية الجمهور لقاء اجر ضئيل في اول الامر . وهكذا فان الشيخ سيد درويش ، الذي ما يزال يلبس القفطان والعمه ، يركب البحر في الاسكندرية في الوقت الذي كانت امرأته (التي سيطلقها فيما بعد) تضع ابنه محمداً . وهكذا دخل سيد درويش عالم المسارح والملاهي ، وهو العالم الذي سيصبح عالمه المفضل فيما بعد .

ولكن الجمهور اللبناني لم ينس تألق الشيخ سلامة حجازي الذي اثار صوته حماس الجماهير في سوريا ومصر والذي اضطر في بيروت ، قبل ثلاث سنوات من ذلك ، ان يغني بصورة مرتجلة على الرصيف امام الصالات الزاخرة بالناس الذين كانوا ينتظرونه .

ولم يلبث الاخوان عطالله ان افلسا . ومع ان سيد درويش قد اضطر في اواخر سنة ١٩٠٩ الى ان يبرق الى عائلته لترسل اليه ما يمكنه من العودة للاسكندرية ، فانه لم يضع وقته سدى . لقد كان الحكم العثماني يشجع اختلاط اجناس البشر مما جعل الاساليب الموسيقية الشرقية كلها ممثلة في مدينة بيروت . وقد تعلم سيد درويش كثيراً في هذا البلد . ولكنه اضطر الى العمل من جديد في المقاهي التي تقوم على قناة المحمودية ، حتى ان صهره منعه من ولوج منزله وهدد بطلاق اخته اذا هو لم يعزف عن هذا النهج من الحياة . وغلب سيد درويش على امره وقبل عملاً مكتئباً ، ما لبث ان تركه ليذهب الى سوريا من جديد . وبعد سنتين من ذلك وبعد ان اصاب نجاحاته الاولى ، عاد الى بلاده وقد اعتورها التبدل ؛ وكان في الثانية والعشرين من عمره وكانت الحرب العالمية الاولى على الابواب .

كانت الاسكندرية تعج بالاجانب الذين قلما كانوا يكثرثون بالغليان المتعاطم والمؤذن بان مصر قد وعت نفسها .

لقد تحمك اللورد كرومر بمصير وادي النيل مدة ربع قرن بدون ان يعرف كلمة عربية واحدة ، وكان يزعم لدى رحيله بان الحركة القومية ان هي الا من بنات الخيال ، ولم يكن ثمة الا طريقة واحدة للجواب على مثيري الشغب : المثابرة على واجباتنا ازاء هذا الشعب والضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه التجاوز على القانون ! ومع الاسف فان ارشاداته اتبعت حرفياً .

وفي سنة ١٩١٤ كان الخديوي عباس حلمي في استانبول وقد حالت الظروف دون عودته الى مصر ، فارقمى العرش عمه السلطان الدمية حسين كامل . وبدأ عهد الحماية الكريه ، فاهلن المفوض السامي السير هنري مكاهون الاحكام العرفية ، وحظر المظاهرات العمالية ، وصادر الرجال والمؤن . وتدقق على البلاد المصرية ما يقارب المليون من جنود الامبراطورية . وكانت تلك فرصة طالما حلم بها المستغلون ، الكبار منهم والصغار ، الذين استفادوا على الرغم من وجود الرقابة .

وفي خلال ذلك كان سيد درويش قد اصبح فناناً كبيراً . صحيح انه ما يزال يعمل في البارات ذات السمعة المشبوهة ، ولكن المقاهي الكبيرة ، كالنصورة والشيبان والسلام ، التي يرتادها نخبة من الزبائن مع ان برامجها ليست على مستوى رفيع ، بدأت تتجاذبه . واضحى سيد درويش في مصاف فناني القاهرة كالللاوندية واسماء القمسارية و ابراهيم القباني .

ويمتاز سيد درويش عن هؤلاء بانه لا يستهدف التطريب فقط ، وان اسلوبه طريف واخاذ . وفي حين ان زملاءه يضيعون في متاهات من الارتجال تجعل دور الملحن ثانوياً ، فان سيد درويش لا يحاول ان يخلب سامعه بمقدرته التقنية فقط . انه يشدد او بالاحرى يبتدع صلة بين انغامه وبين معاني الكلمات التي هي بمثابة الدعامة لها ، صلة تفرض نفسها بلاريب على المغنين الاوربيين ، ولكنها قبل سيد درويش كانت مفقودة عملياً في الشرق ، حيث يحدث ان قصيدة ياس تغنى بلحن راقص ، وحيث لا يهتم بالكلمات الا للتمتع بالجمال المجرى للغة من خاصيتها التأثير في النفس . وقد وضعت هذه الثورة ، وهي ثورة بكل معنى الكلمة ، الموسيقى على مستوى ان لم يكن فنياً فهو على الاقل اشدر روحانية ،

ووضعت الاسس لنهج موسيقي «مصفتى» لم يلبث ان كوّن مدرسة .

ثم نرى الشيخ سيد درويش ينساق في تيار وطني يعم البلاد . فهو مرة يستوحي شعاراً كهذا الشعار المأخوذ عن مصطفى كامل : « بلادى بلادى لك حبي وفؤادى » ، او قصيدة من تلك القصائد التي كانت تعج بها الصحافة العربية آنذاك ، كقصيدة « مصر والسودان » التي تطالب بالوحدة الاساسية بين البلدين لمواجهة المؤامرات البريطانية . ولما منعت السلطات ذكر اسم الخديوي الخلع لجأ سيد درويش الى وسيلة كلاسيكية يلجأ اليها المغنون في البلاد المغلوبة على امرها . فكان يبدأ كل شطر من اغنية بريئة في الظاهر بالحروف التي تكون اسم ع ب ا س - ح ل م ي ، كهذه الاغنية مثلاً :

عواطفك دي اشهر من نار	بس اشمنى جافيتني يا قلبك
انت اللطف وليه احتار	سيد الكل انا طوع او امرك
حالي صبح لم يعرض حبيب	لوم الناس زودني لهيب
ما قلت ان الوصل قريب	يا مليكي والامر لربك

ولكن بما ان سيد درويش هو فنان قبل ان يكون رجلاً سياسياً ، فاننا لا نستغرب ان اغنياته، لن تصطبغ اكثر من ذلك بهذا اللون ولا يلبث ان يعود الى التعني بجمال احدى صديقاته ، جليلة الرائعة ، التي تضعف مع ذلك ازاء اغراءات احد صياغ المحلة . فيغتاط سيد درويش ويشرح القضية كما يتمثلها في اغنية فجة تنتشر في ارجاء المدينة مثيرة الدموع وهودة جليلة التي سوف تظل الى جانبه حتى آخر ايامها .

لقد وجد النهج اللازم لارضاء الجمهور الاسكندري ، وهو نهج جديد ومع ذلك فان اساليب تعبيره تبقى اصطناعية الى اقصى حد . ونخته يتألف من نصف دزينة من الموسيقيين يعزفون على الكمان والقانون والعود وآلات الضرب كالدربكة والصنوج وتصحبهم جوقة من الأصوات النسائية . وهو نفسه كان يعزف على العود في المقاهي وتحب السراوقات التي ينصبونها في الهواء الطلق بمناسبة الاعياد خلال تقديم اغنياته الجديدة في شكل الموشحات والادوار والطقاظيق المعهودة .

في سنة ١٩١٧ كان سيد درويش قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وقد اخذت شركات تسجيل الاسطوانات ، التي جنت ارباحاً طائلة من اغانيه ، تشجعه على القدوم الى القاهرة التي كانت على ما يظهر تمد له ذراعها . والواقع ان سيد درويش كان يتوق الى

مغادرة مسقط رأسه حيث كانت حياته العاطفية تتعقد ، والى التخلص نهائياً من القاهي والاجتماعات الفنية والاصدقاء ، والى نسيان موت زوجته الثانية التي طلقها بدون حق . ولكنه كان يتردد .

وفي هذه الاثناء يتعرف سيد درويش في مقهى الحميدية الى جورج ابيض احد كبار ممثلي المأساة في نهضة الادب العربي ، فيقذف الشيخ في تيار يحترقه في بادئ الأمر ولكنه لا يلبث ان يتخلص منه ، ويؤكد انه احد كبار العاملين على تجديد البلاد .

كان جورج ابيض من اصل لبناني ، وقد ارسلته الحكومة المصرية الى اوربا لدراسة المسرح . فلما عاد الى بلاده ، كان يتحرق شوقاً الى تعريف مواطنيه بالاشياء الجميلة التي رآها وعاشها هناك . غير انه في سنة ١٩١٧ فهم ان الدراما وحدها لا تكفي لاثارة حماس الجماهير الشرقية . ولما كان قد استمع الى اغاني سيد درويش فانه عرض عليه الغناء بين فصول مسرحية « لويس الحادي عشر » التي كان يمثلها على مسرح الحمراء . فقبل سيد درويش ، واستقبل الجمهور الذي كان قليل الاكثارات بالتمثيل اغنياته بهتافات صاخبة . واصيب جورج ابيض بالحبية ، ولكنه فهم انه لكي تصبح تمثيلياته مقبولة ، يجب ان تكون « مرصعة » بالموسيقى . وطوى صفحة « لويس الحادي عشر » ، واعتزم تقديم « فيروز شاه » على احد مسارح القاهرة بعد ان عهد بتلحينها الى سيد درويش باجر قدره عشرون ليرة . وتحمس جورج ابيض لهذه التمثيلية التي تؤذن في الواقع بولادة الاوبريت المصرية ، واعدها للتمثيل ؛ ولكن « فيروز شاه » فشلت فشلاً ذريعاً .

وفي هذه الاثناء نزع سيد درويش العمة واعتمر الطربوش واستبدل الطقم الافرنجي مع سلسلة الساعة والياقة بالقفطان ، وذلك لكي يفرض شخصيته على عالم العاصمة الفني . وقد سكن باب الخلق في بيت وضيع تقاسمه مع موظف صغير من موظفي المكتبة الوطنية . واصبح الآن يغني في كازينو البوسفور ، ومع انه كابد مصاعب جديدة (اقام سلامة حجازي حفلة لمساعدته على انقشال ميزانيته من الغرق) ، فان طريقه قد تحدد . وكان من ثقته بنفسه انه انتزع في احدي الامسيات العود من يدي الاستاذ محمد المسلوب ، وهو فنان رفيع القدر في ذلك الوقت ، وصرخ بوجهه امام الناس : « هو انت كده يا شيخنا . هات العود هات . اذا كان عم المسلوب بالشكل ده يبقى ما فيش غير ابو السيد . اسمع يا عم الموسيقى » .

كان ذلك في عصر ما بعد الحرب المليء بالحدثان ، اذ نلفي الشعب ساخطناً من جراء

ارتفاع الاسعار وقانون الطوارئ، واخطاء حكم وينغيت بقبوله مبدأ تحويل مجرى نهر النيل لتأمين ري الأراضي السودانية. كان هذا الشعب يحس بنزعة مجنونة نحو التنفيس عن كربه، والضحك حتى القهقهة ، ويمجد مبتغاه في الاغاني الخلاعية والروايات الهزلية التي تقدمها مجموعة من المسارح الصغيرة . فنجد فرقة نجيب الريحاني في الاجبسيانا وبالقرب منها نلقى كازينو باريس وفيه فرقة امين صديقي التي تزاحم الاولى مزاحمة تتسم بالسذاجة والقسوة ، والى جانب هاتين الفرقتين نجد فرق الكسار واولاد عكاشة ومنيرة المهدي .

ووجد سيد درويش ، الذي بدأ يكتب لجميع هذه الفرق ، في هذا الجو الحقل المؤاتي لتفتح هبقرته ، وتمكن من وضع الاسس لنوع يكون خطوة جديدة الى الامام نحو رفع مستوى الشعب الثقافي والاخلاقي . ولم يكن هذا النوع سوى الاوبريت المصرية .

وفي خلال ذلك يلتقي سيد درويش الشاعر الزجلي المتوثب بديع خيرى ، الذي يعبر عن مطالب رجل الشارع وحاجاته في عبارات يزيد بها الشيخ توترا بواسطة الموسيقى وهكذا فان اغانيهما تمثل مرة السقاء ذا الصوت الجميل ، ومرة الصانع الصغير او العامل الذي ينوء تحت عبء العمل المرهق ، ومرة الموظف الذي اشترك في الاضراب العام سنة ١٩١٩ فوجد نفسه محروماً من مرتبه الضئيل .

كان سيد درويش يعمل في اكثر الاحيان على اساس نصوص مكتوبة ، ولكن كان يحدث ان وقائع يومية صغيرة من حياة هذا الشعب ، الذي كان يحبه ويفهمه ، تكفي لالهامه . ففي مساء يسمع صوت حمال في جزيرة بدران حيث كان يسكن ، فيستفز الحماس ويفادر المنزل ويتبع هذا اللحن الخام الرائع من شارع الى آخر ، وفي بولاق يسمع صوت بائع متجول فينصت اليه بغنى بلهجة مصر العليا « عجائب ترمه » ، وفي المساء ذاته يروي تجربته الى بديع خيرى ، فتولد الاغنية الشعبية :

مليحة جوى الحلال الجناوى رخيصة جوى الحلال الجناوى

وفي ذلك الحين يدخل سيد درويش الاوساط الأدبية ويمجد نفسه في عداد اكبر اسماء المسرح الشرقي في ذلك العصر . ويتردد بصورة مستمرة على حفلات الاوبرا في القاهرة حيث يشاهد الفنانين الأجانب .

وفي سنة ١٩٢١ اصبح دخله هائلاً: ثلاثمائة جنيه في الشهر غير حقوق تسجيلاته التي لا تعد ولا تحصى . ويطلب منه الاخوان عكاشة تلحين تمثيليتهم «شمشون ودليلة» التي ستمثل

على مسرح الازبكية، فيطلب الف جنيه بلا زيادة ولا نقصان، ولكنهم عجزوا عن تدبير المبلغ وتعاقدوا مع زميل كبير له، قبل بسرور مبلغ مائة جنيه .

كان لا يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره عندما اصابته هذه الشهرة، فانتشى بها واعتزم تأليف فرقته الخاصة التي قدم بواسطتها « العشرة الطيبة » لمحمود تيمور، فكبدته هذه التمثيلية مصاريف باهظة، ومع ذلك فانها لم تنل حظوة الجمهور الموالي للاتراك بتلميحاتها المزعجة الى ممالك العهود الماضية. ثم قدم « شهرزاد » لبيرم التونسي، الذي اهب الجماهير بعد عودته من المنفى باغانيه الوطنية مثل « اليوم يومك يا جنود » و« احسن جيوش في الامم جيوشنا »، ثم قدم « الباروكة » وهي الترجمة العربية لتمثيلية « لا مسكوت » لادمون اودران .

غير ان سيد درويش كان سيء الادارة، فانه على الرغم من شهرته ومن انتاجه الغزير (عشرين اوبريت) لم يكن لديه في اواخر ايامه سوى عوده وفونوغرافه العتيق . وعلى الرغم من فشل مشروعه التمثيلي بسبب سوء ادارته، فانه لم ييأس بل رأيناه ينصرف نحو الكتابة في الصحافة ليرد بلا ريب على الذين كانوا يرهقونه بانتقاداتهم باسم المحافظة على التقاليد . وتحت امضاء « خادم الموسيقى » بدأ بنشر كتاب متسلسل عن الموسيقى في « مجلة النيل » . غير ان عبقريته المجددة لم تمتد الى الحقل الادبي، فيضطر الناشر محافظة على المستوى العلمي لمجلته ان يلجأ الى حيلة . فيتوقف عن نشر مقال سيد درويش المتسلسل ويضع مكانه مقالاً يطالب بالتمتة بصورة ملحة، - الامر الذي يشير فضول القراء .

وقبأة وفي اثناء زيارة لمسقط رأسه، حيث اتى لاعداد مظاهره موسيقية على شرف سعد زغلول، الزعيم العائد نهائياً من المنفى والذي كان يجسد الوعي القومي آنذاك، - دامت المنية .

كان في الثانية والثلاثين من عمره وكان يهم بتنفيذ مشروع له، وقد ادى شغله عليه (بالاضافة الى نهج حياته الجهنمي وحالته الصحية المضطربة - فهو لم يتوصل ابداً الى التخلص من الادمان على المخدر الذي اعتاده منذ صباه) الى تقويض حياته . فبالاشتراك مع اميل عريان، مخترع البيانو الشرقي، فكر في تأسيس شركة تجارية تحمل اسم « اغاني الشعب » غايتها تسجيل الاغاني ذات الاسلوب الجديد وطبعها ونشرها . وقد كان ذلك بالنسبة للعصر وللبلاد مشروعاً ثورياً، وعلى الاخص ان احد بنود الاتفاقية ينص على ان

الاغاني المذاعة سوف تمكن عازف البيانو المرافق من العزف بيديه ، دون ان تضطر اليد اليسرى من تكرار ما عزفته اليد اليمنى ، بل تخضع لقواعد الايقاع الاوربي .

ان تلاميذ الشيخ سيد درويش ، وعلى رأسهم المغني الشهير محمد عبد الوهاب ، جاهدوا وهم ما زالوا يجهدون في متابعة عمله . و اذا كانت تنقيبهم المير عن موسيقى كلاسيكية عربية مائة بالمائة يثير الابتسام فانهم بلا ريب لا يتمشون دائماً على خطة المعلم . فلقد كان اهتمام سيد درويش الاساسي ينصب على تنمية الاساليب التقليدية لا على نسخ الالحان الاوربية ، وكان دافعه الاكبر التعبير عما يرى ويشم ويشعر وان يقاسم الجماهير هذا الشعور . وبما ان العربي قد عبر دائماً عما يخالجه نفسه بواسطة الشعر ، فقد كان سيد درويش قبل كل شيء شاعراً يلوذ بصورة غريزية الى الكلام ، كلامه او كلام غيره ، ليشدد عليه بواسطة الموسيقى .

لقد كشف سيد درويش ببساطة وعفوية عن مشاعر عصره وآلامه وآماله ، ليس فقط لاقلية مثقفة بل لشعب بأجمعه ، - هذا في الوقت الذي كان فيه الشاعر الكبير احمد شوقي ، وقد نودي به اميراً للشعراء في سنة ١٩٢٧ ، يرى من الحكمة والسياسة التعبير بواسطة قصائد قليلة العفوية ، وفي الوقت الذي لم يستطع فيه خليل مطران نفسه ان يحرر الشعر من كلاسيكية متصلبة وعقيمة .

ومع ذلك فان عظمة سيد درويش تنبثق ايضاً عن حقل آخر . ففي بلاد ما زالت الاغنية فيها - ولا نقول الموسيقى - التعبير الاكمل عن الروح البشرية ، كان عمل الشيخ سيد درويش عمل تجريد وتنقية . فلقد حدد هذا الاباحي الثائر والمحجب الطريق لرفع مستوى بلاده الاخلاقي .

وقد دفن سيد درويش في مقابر المنارة بالاسكندرية ، وكتب على شاهده :

يا زائري لا تلسني من دعوة سالحة
وارفع يديك الى السما واقرأ لروحي الفاتحة